

" الرحمة "

إن الرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لألام الخلق ، ويسعى لازلتها ، فإن تبدل الاحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه عطفة الحب والرأفة ، وهى صفة من صفات الله - عزوجل - قال تعالى : ﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة غافر: ٧].
وعن " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - قدم على رسول الله - ﷺ - بسبى - يعنى اسرى - فاذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً فى السبى ، أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال رسول الله - ﷺ - : " اترين هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ .

قلنا " لا والله . وهى تقدر على الا تطرحه ! ، قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها . (١)

وكثرة كاترة من اسماء الله الحسنى ينبع من معانيها الرحمة والكرم والعفو والفضل ، وقد جاء فى الحديث القدسى " ان رحمتى تغلب غضبى " . (٢) والله - عزوجل - أفضل الرحماء ، ورسوله - ﷺ - كذلك قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٨].
وقال تعالى فى نبيه - ﷺ - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]
وقال - ﷺ - : " مثل المؤمن فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " .

فأصحاب الرأفة ، والرحمة قريبيون من الله - سبحانه وتعالى - أما الجبارين ، وقساة القلوب ، وعُلاَّظ الأكباد ، والكاذبين المستكبرين فهم فى الدرك الأسفل من النار .
وفى الحديث : " إن أبعد الناس من الله تعالى القاسى القلب " (٣) .

وكان رسول الله - ﷺ - يعد جمود العين ، واستغلاق القلب من الشقاء ، وقد أراد الله أن يمن على الإنسانية جمعاء بمن ينصر الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، ويحمل الكل ، ويأسو الجراح ، ويترفق بالأمة فأرسل سيدنا محمد - ﷺ - ولذلك قال الله

1- رواه البخارى .
2- رواة مسلم .
3- رواه الترمذى .

تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَقْبَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [سورة ال عمران: ١٥٩].

وقد لازمته - ﷺ - هذه الخلال العظيمة في أدلك الظروف ، عندما حاول المشركون اغتياله في غزوة " أحد " ونظر إلى اصحابه - رضى الله عنهم - وهم مخرجون في دماءهم الذكية ، ويقال له : يا رسول الله ادع على المشركين ، فما كان منه - عليه الصلاة والسلام - إلا أن قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

إن القسوة دليل على النقص في الإنسان ، وفي تاريخ الأمم دليل الفساد الخطير ولذلك حذر الإسلام منها ، فقال تعالى : ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [سورة الحديد: ١٦٦].

ونرى الإسلام يأمر المسلمين بالتواضع ، وجعله من دلائل الإيمان الكامل قال رسول الله - ﷺ - " لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله : كلنا رحيمة . قال : " انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، لكنها رحمة العامة " (١) .

وقال رسول الله - ﷺ - : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " ، وزد في رآيه أخرى " ومن لا يغفر لا يغفر الله له ، وقال - عليه الصلاة والسلام - " من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من في السماء " (٢) .

وقال تعالى : ﴿... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَّبِعُونَ فَضلاً مِنْ اللَّهِ ...﴾ [سورة الفتح: ٢٩] .

والإسلام رسالة خير وسلام ، وعطف على البشر أجمعين ، وسور القرآن الكريم جميعاً مفتحة بقوله " بسم الله الرحمن الرحيم " ورحمة الله وسعت كل شيء عدا المشركين ، قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَلَيْكُ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

1- رواه الطبراني .

2- رواه البخارى .

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦: ١٥٧].

وقد تأخذ الرحمة طابع القسوة مثل القسوة التي يسلكها المرئى مع مرديه وتلامذته ، ومثل الأب مع أولاده فالقسوة هنا تُعدُّ رحمةً بهم ، يقول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

كما أن القصاص في الإسلام يعد رحمةً بالمسلمين ، وحماية لدمائهم وأموالهم حتى لا يطمع فيها طامع ، ولا يتجرأ عليها سفيه ، كما انه حقن للدماء وحفاظ على الأعراض وصور للحرمانات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩] وجاءت كلمة حياة نكرة لتدل على العظمة ، يعنى ولكم فى القصاص حياة عظيمة يا أصحاب العقول فالقسوة التي حرمها الإسلام هى التي لا ترتبط بمنطق ولا عدالة .

قال رسول الله - ﷺ - : " جعل الله الرحمة مائة جزء ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه " (١) .

وفي روايه أخرى : " إن الله تعالى خلق - يوم خلق السماوات والأرض - مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضه على بعض " (٢) .

وعنأبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت الصادق المصدوق صاحب هذا القول " ابا القاسم " يقول : " لا تنزع الرحمة إلا من شقى " (٣) .

وبينه الإسلام أن هناك أقواما يستحقون أضعافاً من الرحمة ، وهم ذوى الأرحام ، والرحم مشتقة من الرحمة فى مبناها ، فيجب ان تستقيم معها فى معناها ، قال رسول الله - ﷺ - : " الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، الرحم مشتق من الرحمن ، من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعته الله " (٤) .

- 1- رواه البخارى .
- 2- رواه مسلم .
- 3- رواه ابوداود .
- 4- رواه الترمزى .

والشجنة هي القارية المشتبكة اشتباك العروق، فواجب على المسلم أن يؤدي حقوق اقربائه، وذلك بالموودة الدائمة المتواصلة، وأحق الناس بالموودة والرحمة هم الوالدان، قال تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٤] ثم الأولاد، فعن "البراء بن عاذب - رضى الله عنه - قال: "أتى ابويكر عائشة وقد أصابتها الحمى، فقال: "كيف انت يا بنية وَقَبَّلْ خدها (١).
وعن أبي هريرة كذلك. قال: « قبل رسول الله - ﷺ - الحسن بن علي - رضى الله عنهما - وعنده الأقرع بن حابس .

فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله - ﷺ - ثم قال: " من لا يرحم لا يُرحم " .

وفي رواية أخرى: " أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك (٢).
قال أنس رضى الله عنه دخلنا مع رسول الله - ﷺ - على أبي سيف القين وكان صهراً لابراهيم ولده عليه السلام فاخذ رسول الله ابراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذر فان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله قال « يا ابن عوف إنها رحمة » ثم اتبعها أخرى أى دمة أخرى فقال « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وان بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » (٣).

كما تجب الرحمة باليتامى، فإن كفالتهم، والإحسان إليهم من أذكى القربات، فعن "أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رجلا شكأ إلى رسول - ﷺ - قسوة قلبه فقال: " امسح رأس اليتيم، واطعم المسكين " (٤).

كما تجب الرحمة المرضى، وأصحاب العاهات، فلا يجوز لمسلم أن يؤخذهم بما أعفاهم الله منه، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَدْرَبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح: ١٧]
ومن الرحمة أيضا الرفق بالخدم، قال رسول الله - ﷺ -: - " خواتكم حواكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم " .

- 1- رواه البخارى .
- 2- رواه البخارى .
- 3- رواه مسلم .
- 4 - رواه احد .

وعن أنس-رضي الله عنه- قال : خدمت رسول الله - ﷺ - عشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته لما فعلته ، ولا لشيء تركته لما تركته .

وعن أبي مسعود البدرى-رضي الله عنه- : "كنت اضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : " إعلم أبا مسعود- فلم أفهم الصوت من الغضب - فلما دنا منى إذا هو رسول الله - ﷺ - : " فإذا هو يقول : " إعلم ابا مسعود ان الله اقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت : " يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى .
فقال : " اما لوتفعل للفتحك النار " (١) .

وقال رسول الله - ﷺ - حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شئم " (٢) .
وجاءه رجل يسأله : " كم مرة اغفوع عن الخدم ، قال - ﷺ - : " كل يوم سبعين مرة " (٣) .
وقال رسول الله - ﷺ - : " من ضرب سوطاً ظملاً اقتص منه يوم القيامة " .

ومن الرحمة في الإسلام الرفق بالحيوان ، فقد رأى " عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه - رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال : ويلك قدها للموت قوداً جميلاً ، وقال رجل يا رسول الله : انى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : " ان رحمتها رحمك الله " (٤) .
والدليل على أن الإسلام عرف طريق الرفق بالحيوان قبل الغرب أن يعرفه والشرق ، وقبل ان تنشأ المستشفيات والتي تعرف " بالوحدات البيطرية " ويعمل فيها الأطباء المتخصصون ، وقبل ان يعرف العالم " جمعيات الرفق بالحيوان " عرف الإسلام وعرف العالم الرحمة والرفق ، والشفقة بالحيوان ، قال رسول الله - ﷺ - : " بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، واذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر فملاً خفه ماءً ، ثم امسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له " .

قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً ، قال : " في كل كبد رطبة اجرا " .
وفي روايه : ان امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يبئراً ، قد أولج لسانه من العطش فنزعت له موقها - أى خفها - فغفر لها به . فإن كانت الرحمة بكلب تغفر الذنوب للبغياء فان الرحمة بالبشر تصنع العجائب .

- 1- رواه مسلم .
- 2- رواه البزار .
- 3- رواه الحاكم .
- 4- رواه الحاكم .

ويقول الله- عز وجل- : ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٨].

يعنى لا تملها عن الحق ، ولا تضلنا بعد ان هديتنا إلى دينك القديم وشرعك المستقيم وامنحنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها على دينك الحق انك انت يارب المتفضل على عبادك بالعطاء والاحسان .
فعباد الرحمن ينادون رحمة الله التي ادرکتهم بالهدى بعد الضلال وءهبتهم هذا العطاء الذى لا يعادله عطاء .

وهم يوحي ايمانهم يعرفون أنهم لا يقدرين على شيء إلا بفضل الله ورحمة ، وانهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله ، فيتجهون اليه بالدعاء ان يدهم بالعون والنجاة، وعن عائشة - رضی الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - كثيراً ما يدعو " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك " ، قلت يا رسول الله : ما أكثر ما تدعوا بهذا العامة . فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن اذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزغعه .

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحولم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله ، فلا ملجأ من الله إلا إليه وأن يتوجه إلى الله يناشده رحمته وفضله .
ويقول " القرطبي " : وهب لنا من لدنك رحمة - أى من عندك ، ومن قبلك تفضلاً ، لا عن سبب منا ولا عمل . ومعنى الآية " هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة ، لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

ويقول صاحب اللطائف : ما ازنادوا قريباً إلا ازنادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستعانة أميدوا بأنوار الكفاية . وربما يقصد الأمام " القشيري " فى لطائفه بهذا القول : انهم ابدوا طامعون الهداية ، محتاجون - لا لأعمالهم - بل هم محتاجين لفضل الله ورحمته ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون انهم ما زلوا بعيدين عن التمام وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها " ما ازنادوا قريباً إلا ازنادوا ادبا " .

ويقول صاحب التفسير الكبير ، " لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا " يعنى لا تمنعها الألفاظ التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان ، وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألفافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال : أزغهم ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف: ٥].

وقال الأصمعي : لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا فهو كقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ [سورة النساء: ٦٦] وقال : ﴿.....لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُر بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣٣]. والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ ، وقد يقول القائل : لا تحملي على إيذائك أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذياً لك الثالث : قال الكعي " لَا تُرْغ قُلُوبَنَا " أي لا تسمنا باسم الزئغ ، كما يقال : فلان يكفر فلاناً إذا سماه كافراً ، والرابع : قال الجبائي : أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا؛ وقال آخرون : احرسنا من الشيطان ومن شرير أنفسنا حتى لا نزيغ .

ومجمل القول : ان أولئك الراسخون في العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلعون إلى الله ان يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة ، والاستقامة على الطريق فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فينافون أن يقعوا في الخطأ ، والخطأ قرين بالخطر .

ويقول الله تعالى في معنى الرحمة : ﴿وَلَيْنُذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ [سورة هود: ٩].

يعنى اذا انعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة والأمن ، والرزق ، وغيرها من النعم فاذا ما سلبناه تلك النعم فاذا هو بؤس قنوط من رحمة الله .

ومن معانى الرحمة ما يسجله القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَلَيْنُذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

والمعنى ولئن اعطينا الانسان نوعاً من أنواع النعم كرفاء عيش وبسطة رزق ، وصحة وامن ، وولد بار ، رحمة مبتدأة منا اذقناه لذتها فكان شديد الاعتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله تعالى في الخليقة مثل المرض ، والموت والعسر إنه ليظفل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزل يتمتع بها فضلاً عما سلف منها ، انه يجمع بين اليأس بعودة ما وقع منه والكفر بما يقرله لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر .
و" الاناقة " هنا معناها الاعطاء القليل .

ومن معانى الرحمة فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه :- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ [سورة الأنبياء: ١٧].

والمعنى قد ارسل الله محمداً - ﷺ - رحمة للعالمين من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء .

فالبشرية كلها قد تأرت بالمنهج الذي جاء به طائفة أو كارهاة ، شاعرة أو غير شاعرة وما تزل ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد ان يستظل بها ويستريح فيها نسائم السماء الرضية في هجير الأرض المحرقة وبخاصة فى هذه الأيام التى تهب علينا فيها الأعاصير الهوجاء حاملة تيارات الغزى الفكرى ، والثقافى من الشرق والغرب مستهدفة اسلامنا ، ونبينا ، وكتابتنا ، وليس أدل على ذلك من الهجمات الشرسة العدوانية التى تشنها هذه البلاد مثل " الدمارك " حيث شنت هجوماً عنيفاً وقاسياً على سيدنا محمد - ﷺ - كما هاجمت الإسلام في حملة شرسة ، ورسومات " كاريكاتيرية " تصف الإسلام بأنه دين الارهاب ، بينما الإسلام هو دين العدالة ، ودين الرفق ، ودين الرحمة بين جميع الناس ، ولكل العالمين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]. وان إنسانية اليوم في مسيس الحاجة إلى هذه الرحمة ، والترحم فيما بينها ، خاصة ذلّم العالم الشارء في متهاتات المادة ، وناار الحرب ، وجفاف الأرياء ، وقسوة القلوب .

ويمضى القرآن في الحث على الأخلاق الفضيلة ، والخِلال العظيمة والخصال الحميدة فيقول سبحانه: ﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

كان المنافقون أو جماعة منهم يؤدّون رسول الله - ﷺ - ويعيبونه ويقولون هو "اذن سامعه" أى يسمع من كل احد ما يقوله ، وَيَقْبَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب ، سريع الاعتراض بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ، ويميز بين ما هو جدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغى قبوله وهذا عيب في الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وأبعاد الناصحين ، وإساءة قالوا ذلك لأنه كان - عليه الصلاة والسلام - يعاملهم باحكام الشريعة ، كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر ، فظنوا انه يصدق كل ما يقال له فيقول لهم القرآن : نعم انه أذن ، ولكنه نعم الأذن لأنه أذن خير لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا ما يعتقد انه الحق ، وما فيه مصلحة الخلق ، وليس باذن في سماع الباطل مثل الكذب ، والنميمة ، والجدل ، والمرء واذنا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ، ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه ، كما هوشأن الملوك

والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء ، وذلك بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون ايذاءه، ثم يُبَيِّنُ اللهُ - عز وجل - المراد من أذن الخير فقال يصدق بالله ، وبما يوحي اليه مما فيه خيركم وخير غيركم ويصدق المؤمن الصادق الإيمان من المهاجرين والأنصار - رضى الله عنهم - وذلك لما علمهم من ثبات العقيدة ، وصدق ايمانهم الذى يحتم عليهم أن يصدقوا النبى - ﷺ - فيما يحدثوه به ، كما أنه رحمة للذين آمنوا منكم ، إيماننا صحيحاً ، صادقاً إذ كان سبب هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وليس من أظهر الإسلام وأبطن الكفر نفاقاً إذ هونقمة عليه في الدارين .

ومن الرحمة أيضا قوله تعالى :- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ (سورة الروم: ٢١)

[سورة الروم: ٢١]

والمعنى ومن آياته الباهرة ، الدالة على عظمته ، وكمال قدرته أن خلق أصلكم وهو آدم - عليه السلام - من تراب ثم أنتم تتطورين من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ، إلى بشر عقلاء تتصرفون فيما هو وقوام معاشكم .

ويقول "ابن كثير" فسبحان من خلقهم وسيرهم وسخرهم ، وصرفهم في فتون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبيح ، والغنى والفقير والسعادة والشقاوة . كما أن آياته العظيمة أن خلق لكم من جنس آخر يقول "ابن كثير" :
ولو أنه تعالى جعل الإنسان من جنس آخر ، من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة وذلك من تمام رحمته ببنى آدم ، لتميلوا إليهن ، وتألفوهن .

وجعل بين الأزواج والزجات محبة وشفقة ، يقول "ابن عباس" : - رضى الله عنهما - المودة هي " حب الرجل امرأته ، والرحمة هي شفقتة عليها ألا يصيبها بسوء، أما فيما ذكر لعبد عظيم لقوم يتفكرون فى قدرة الله وعظمتها فيدركون حكمته العليا . ومن معانى الرحمة في القرآن الكريم قوله تعالى :- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠]

يعنى ليس المؤمنون إلا إخوة تجمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء ، ولا بغضاء ، ولا تقاتل ، والتعبير بلفظه " إنما " هنا للحصر ، فكأنه يقول : " لا أخوة إلا بين المؤمنين ، ولا أخوة بين مؤمن وكافر " ، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة

الإسلام أقوى من أخوه النسب ، ودليل ذلك أن النبي - ﷺ - نسب " سلمان الفارسي " إلى آل بيته فقال - عليه الصلاة والسلام - " سلمان من آل البيت " ولم ينسب عمه " ابلهب " وقد قال شاعرهم :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وحط بالشرك النسيب ابولهب

فأخوة النسب لا يُعبأ بها إذا خلت عن أخوة الإسلام ، فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ، و"تقوا الله تعالى بإمتثال أوامره ، وإجتنباب نواهيه ، لتعمكم الرحمة ، وتنالكم المغفرة وتسعدوا بجنات عرضها السماوات والأرض ، كما أنكم تسعدون بمرضات الله - عز وجل - .

ويمضى القرآن الكريم في توجيهاته الراشدة ، وحكمه العالية وإرشاداته النافعة المبنية على الرحمة والمودة والصفاء ، فيقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنَاءَ ابْتَدَعُوا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الحديد: ٢٧].

والمعنى ثم اتبعنا بعدهم برسولنا الكرام ، أرسلناهم رسولا بعد رسول موسى ، إلياس ، يونس ...

وغيرهم وجعلناه بعد أوئك الرسل لأنه كان آخر الأنبياء من بنى إسرائيل يعنى سيدنا عيسى - عليه السلام- وأُنزنا عليه الانجيل الذي فيه البشارة بـ " محمد - ﷺ - وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة والرحمة والرأفة ، واللين .

يقول صاحب التسهيل : " هذا ثناء من الله عليهم بتحيتهم بعضهم في بعض ، كما وصف تعالى أصحاب محمد - ﷺ - بأنهم " رحماء بينهم " أما الرهبانية التي ابتدعها القسس والرهبان وأحرتوها من تلقاء أنفسهم ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها .

يقول " أبوحيان " : والرهبانية هي رفض النساء ، وشهوات الدنيا واتخاذ الصوامع ، وقد أحدثوها من عند أنفسهم ، وما كتبناها عليهم ، وما أمرناهم الا بما يرضى الله ، والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى وما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله فما قاموا بها حق القيام ولا حافظوا عليها كما ينبغي .

يقول " ابن كثير " - وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قريبة تقربهم إلى الله - عز وجل - .

وفي الحديث " لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله فأعطينا

الصالحين من أتباع عيسى - عليه السلام - الذين يثبتوا على العهد وآمنوا بحمد - ﷺ - ثوابهم مضاعفاً ، وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة ، منتهكون لمحارم الله مثل قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقَهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ [سورة التوبة: ٣٤] ومن بين الآيات القرآنية الكريمة التي تحض على الأخلاق المتمثلة في الرحمة قول الحق - سبحانه وتعالى : ﴿ تُعْرَكَانِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّمَّةِ ﴾ [سورة البلد: ١٧] والمعنى ثم كان من الذين عملوا هذه القربات لوجه الله تعالى ، وكان مع ذلك مؤمناً صادق الإيمان ، وفي الآية إشارة إلى أن هذه القرب والطاعات لا تنفع الا مع الإيمان وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان ، وطاعة الرحمن وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله " و " ثم " هنا ليست للترضى الزمنى وإنما للترضى المعنوى ، باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقاً ، والأعلى أفضاً ، والا فما ينفع فك رقاب ، ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب ، وإطعام الطعام ، وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزناً في ميزن الله ، لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزج متقلب ، أو ابتغاء محمّدة من البيئة أو مصلحة . (١)

1- التفسير .

- مختصر ابن كثير ج ٣ ، ص ٥٢ الكبير للرازي ، ص ٢٠ ، ص ١٧٥ .
- القرطبي ج ١٠ ، ص ٢٥٢ .
- الطبري ج ٢١ ، ص ٢٢٢ .
- البحر المحيط ج ٧ ، ص ١٦٨ .
- الكشف ج ٣ ، ص ٤٣٠ .
- زاد المسير ج ٦ ، ص ٣٩٣ .
- حاشية الصاوى ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .
- تفسير المراعى ج ٧ ، ص ١٤٦ وما بعدها ، ج ١ ، ص ١٠٢ وما بعدها .
- صفوة التفاسير .
- الجلالين ج ٤ ، ص ١٧٦ .
- البيضاوى ج ٣ ، ص ١٤٦ .
- تفسير ابن كثير .
- روح المعانى للالوسى .
- فى ظلال القرآن ج ٥ ، ص ٢٤٠٢ وما بعدها . ج ١ ، ص ٣٧٠ وما بعدها . ج ٦ ، ص ٣٩١٣ وما بعدها .
- مفاتيح الغيب ج ٤ . ص ٩٩ وما بعدها .
- لطائف الاشارات للقسيرى ج ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

وكما قال سبحانه ﴿فَكَرِهَ ۙ﴾ (١٣) أو ﴿إِطَعْتُمْ فِي يَوْمِ ذِي مَسْعَبَةَ ۙ﴾ (١٤) ﴿بَيْمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۙ﴾ (١٥) أو ﴿مَسْكِينًا ذَا مَرْيَبٍ ۙ﴾ (١٦) ﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۙ﴾ (١٧) [سورة البلد: من ١٣-١٧]

فتم هنا لإفادة معنى الفضل والعفو. والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة، ولإقتحام العقبة بصفة خاصة، والتواصي به يعزز درجة الصبر ذاته وهي درجة تماسك الجماعة المؤمنة، وتواصيها على معنى الصبر وتعاونها على تكاليف الإيمان. فهي أعضاء متجاوبة الحس، تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض، وحمل تكاليفه فيوصى بعضها بعضاً بالصبر على العبء المشترك، ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل، ويقوى بعضها بعضاً فلا تنهزم، وهذا أمر غير الصبر الفردي وإن يكن قائماً على الصبر الفردي، وهو إحياء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة، وهو ألا يكون عنصر تخذيل، بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة، بل داعية اقتحام، ولا يكون مثار جزع، بل مهبط طمأنينة. وكذلك التواصي بالرحمة، فهو أمر رزق على الرحمة إنه إشاعة الشعور بواجب الترحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به والتحااض عليه، واتخاذها واجباً جماعياً فرياً في الوقت ذاته يتعارف عليه، ويتعاون عليه الجميع.

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه وهو المعنى الذي يبرزه القرآن الكريم، كما تبرزه أحاديث رسول الله - ﷺ - .

لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين، فهو دين جماعة، ومنهج أمة مع وضوح التبعية الفردية، والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً. أولئك أصحاب الذين يقتحمون العقبة، كما وصفها القرآن وحدودها " أولئك أصحاب الميمنة " وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى، أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة، وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني.

ومجمل القول أن الإسلام يأمر بالرحمة، والترحم، وهو خلق القرآن الكريم الذي يوجه المسلمين إلى الترحم فيما بينهم فالرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرقق لآلام الخلق، ويسعى لإزالتها، ولا يبأس لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى، هي كمال في الطبيعة حيث إن تلبد الإحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان، ويسلبه أفضل ما فيه وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه، ومن ثم كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم، بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز.

ولقد وصف أمير الشعراء " أحمد شوقي " رسول الله - ﷺ - بالرحمة فقال :

وإذا رحمت فأنت أم أواب هذان في الدنيا هم الرحماء

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً

وَهِيَئَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ [سورة الكهف: ١٠]

والمعنى وذكر حين لجأ الشبان إلى الغرو وجعلوه مأواهم فقالوا ربنا أعطنا من خزائن رحمتك مغفرة ورتقا وأصلح أمرنا وأجعلنا من الراشدين المهتدين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ

لَكُمْ رَبِّكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ [سورة الكهف: ١٦]

يعنى وإذا اعتزتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان فالتجؤ إلى الكهف يبسط لكم ربكم ويوسع عليكم رحمته ويسهل عليكم أسباب الرزق وما تحتاجون إليه من غداء وعشاء في الغار .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ

الْعَذَابَ بَلْ لَهُم مَّوْعِدٌ لَّنْ يَّجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ [سورة الكهف: ٥٨]

والمعنى ، وربك يا محمد - ﷺ - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم وتمردهم ولو أنه يعاقبهم بما اجترحوا من سيئات ، وارتكبوا من مناكل لعجل لهم العذاب في الدنيا ولكنه - سبحانه وتعالى - يؤخرهم عنهم العذاب الذى يستعجلونه به رحمة بهم وقد جرت سنة الله تعالى أن يمهل الظالم لكنه لا يهمله ، حيث إن لهم وعداً آخر في القيامة يرون فيه الاهوال ولن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى .

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ

كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا

فَعَلْنَاهُ عَن أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [سورة الكهف: ٨٢]

والمعنى ، وأما الجدار الذى بنته دون أجر قد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لفلاحين يتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح أبيهما وقيل أنه الأب السابع وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح . فأراد الله أن يكبر ويشدد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما ما فعلت ذلك عن أمرى أى من أمرى ومن تلقاء نفسى بل هو بأمر الله وإلهامه .

ويضى القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الفاضلة ، والتمسك بها والسير على

منوالها كى يسعد المسلم في دنياه ، ويفوز بالجنة في أخراه فيقول الحق - سبحانه

وتعالى :- ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مَالٍ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]

وهنا نتكشف سمة من سمات بنى إسرائيل ، فقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه ، فلما جاءهم من يقاتلون تحت لوائه نكصوا على أعقابهم ، وجادلوا في اختيار الله لهم ، واستكبروا أن يكون طالوت الذى بعثه الله لهم ملكاً عليهم ، لأنهم يرون أنهم أحق بالملك منه بالوراثة ، فلم يكن من نسل الملوك فيهم ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التعاضى عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غبش فى التصور ، كما أنه من سمات بنى اسرائيل المعرفة . ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقية الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره فقال: " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " [سورة البقرة: ٢٤٧]

إنه رجل قد اختاره الله وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتى ملكة من يشاء ، فهو ملكه وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء والله واسع عليم ، ليس لفضله خازن ، وليس لعطائه حد ، وهو الذى يعلم الخير ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها . وهى أمور من شأنها أن تصح التصور المشوش ، وأن تجلوعنه الغبش ، بيد أن طبيعة بنى اسرائيل ونبيها يعرفها لا يمكن أن تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها ، وهم مقبلون على معركة وولاد لهم من أمر خارق للعادة ، وظاهرة تهز قلوبهم ، وترتها إلى الثقة واليقين . ولما أعترض بنو اسرائيل على رئاسة وإمارة طالوت يبين الله تعالى لهم أن السبب في اختياره هو:

أولاً : العلم ، ليتمكن بوساطته من معرفة أمور السياسة .

ثانياً : قوة البدن ، وذلك ليعظم خطر؛ في القلوب ، ويكون في وسعه ومكنته مقاومة الأعداء ، ومكابدة الشدائد . وقد خصه الله - سبحانه وتعالى - منهنما بحظ وافر . يقول " ابن كثير " :- رحمه الله تعالى - " ومن هنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسه ، والله يعطى الملك لمن يشاء من عباده من غير إرت أو مال ، والله واسع الفضل ، عليم من هو أهل فيعطيه إياه ولذلك لما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله له أجابهم الله تعالى إلى ذلك فقال - سبحانه وتعالى :-

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨]

فعلامه اختياره عليكم هو أن يرز الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم ويقول "الزَمْخَشَرِي" :- هو صندوق التوراة الذي كان موسى - عليه السلام - إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني اسرائيل ولا يفرون. ففي التابوت السكون والطمأنينة ، والوقار ، وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وهارون وهى " عصا موسى وثيلهم ، وبعض الألواح التى كتب فيها " التوراة " تحملة الملائكة .

يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما :- " جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون .

إن في هذا الأمر وهو نزل التابوت بين يدي " طالوت " علامة وأمانة ولليل واضح جلى على أن الله - سبحانه وتعالى - اختاره ليكون ملكاً عليهم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر . ويقول صاحب لطائف الاشارات إنهم نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له ، فبين لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عدم المال فقد رزاه الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه ، وقيل : أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرز عظيم البنية فإن في المثل " فلان اسم بلا جسم " يعنى " نكربلا معنى وأن الله تعالى إذا أظهر نوراً أمده يتأييد من قبله ، فلما ملك طالوت عليهم أنزل الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الداله على صدق قول نبيهم فى اختياره ، فرز عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملكه وأن نبيهم - عليه السلام - صدقهم فيما أخبرهم . ويقول الأستاذ " أحمد مصطفى المراعى " فى تفسيره المعروف : " روى فى أخبار بنى اسرائيل أن الاسرائيليين فى الزمن الذى بعث فيه " صموئيل " نبياً لهم ، كانوا قد انحرفوا عن شريعتهم ، وعبدوا الأصنام والأوثان وضعفت فيهم الرابطة الدينية ، فسلط الله عليهم أهل فلسطين ، فانتخوهم وقتلوا منهم العدد الكثير ، وأخذوا تابوت عهد الرب ، وكانوا من قبل يستفتحون به ، يعنى " يطلبون الفتح والنصر به " على أعدائهم ففترت همتهم ، واستكانوا ونلوا ، ولم يكن لهم إلى ذلك العهد ملوك بل رؤسائهم وقضاتهم رجال الدين ، ومن بينهم أنبياءهم ومن هؤلاء " صموئيل " فقد كان قاضياً ، ولما كبرت سنه جعل بينه قضاة ، فكانوا قضاة الجور ، وأكلة " الرشاً " فاجتمع شيوخ بنى اسرائيل الذين عبر عنهم القرآن " بالملأ " وطلبوا من " صموئيل " أن

يختار لهم ملكاً يحكم فيهم كبقية الشعوب الأخرى ، فحذرهم ، وأنذرهم ظلم الملوك ، واستعبادهم للامم فألحوا ، فألهمه الله أن يختار لهم " شاول " ملكا ، فقالوا : كيف يملك علينا ، وهولا يستحق هذا التملك ؟ لأنه هناك من هو أحق به منه ، ولأنه لا يوجد لديه ما يتوقف عليه الملك وهم " المال " ولأنه ليس من سلائل الملوك ، ولا من سلائل النبوة ، وقد كان الملك فى سبط " يهوذا ابن يعقوب " لا يتجاوز؛ إلى غير؛ ومنهم " داود وسليمان " - عليهما السلام - وكانت النبوة فى سبط " لآل بن يعقوب " ومنه " موسى وهارون " وقد جرت العادة عند الناس أن الملك لا بد أن يكون وارثاً للملك أو ذا نسب شريف يسهل على عظماء الناس أن يخضعوا له ، أن يكون ذا مال كثير يدير به الملك ، ولا يأبهون بمعارفه وصفاته الذاتية وفضائله وأخلاقه . من أجل هذا بين الله فيما حكاه عن نبيه خطأ هؤلاء القوم فى زعمهم أن الملك لا يستحق إلا بالنسب ، وسعة المال فقال تعالى:- ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨]

يعنى إن الله اختاره ملكا عليكم لما فيه من المزايا الآتية :-

أولاً : الاستعداد الفطرى ، وهوفى المنزلة الأولى من الأهمية ومن ثم قدمه .

ثانياً : السعة فى العلم الذى يكون به التدبير ، ومعرفة مواطن ضعف الأمة وقوتها ، وجودة الفكر فى تدبير شؤونها .

ثالثاً : بسطة الجسم ، وكمال قواه المستلزمة لصحة الفكر ، فقد جاء فى أمثالهم " العقل السليم فى الجسم السليم " وللشجاعة، القدرة على المدافعة والهيبة والوقار .

رابعاً : توفيق الله تعالى له بتسخير الأسباب التى لا عمل له فيها وهذا ما عناه - سبحانه وتعالى - بقوله " والله يؤتى ملكه من يشاء " أما المال فليس بلازم فى تأسيس الملك ، لأنه متى وجدت الأسباب سهل على صاحبها إيجاد المال اللازم لتدبير الملك ، فكم فى الناس من أسس دولة وهو فقير أسمى ، وكان استعداده ومعرفته بحال الأمة التى سادها كافياً فى الاستيلاء عليها ، واستعانته بأهل العلم والشجاعة كافياً فى تكمين سلطته فيها . " والله واسع عليم " أى والله واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء أمراً اقتضته حكمته فى نظام الخليفة فإنه يقع لا محالة ، عليم بوجود الحكمة فهو يضع لهم من السنن والنظم ما هوفى منتهى الإبداع والإنقان ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذه هي الأخلاق في القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلو أن الناس تمسكوا بإسلامهم وسنة نبيهم ، وقرآن ربهم لسعدوا في الحياة الدنيا ، وفازوا برضوان الله تعالى في الدار الآخرة (١).

ومن الأخلاق في القرآن الكريم، ما تقصه علينا هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿.....وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران: ٨] يقول " الإمام القرطبي " :-

" وهب لنا من عندك ، ومن قبلك تفضلاً عن سبب منا ، ولا عمل وفي هذا إستسلام وتطرح ، يعنى وهب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة لأن الرحمة راجعه إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

وفي الكشاف " وهب لنا من لدنك رحمة يعنى وأعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويره بما ينبغى فهولاء المؤمنون سألوا ربهم أولاً ألا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل ، والعقائد الفاسدة ، ثم إنهم أتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزينه الطاعة ، وإنما قال " رَحْمَةً " ليكون ذلك شاملاً لجميع أنواع الرحمة ، فأولها أن يحصل فى القلب نور الإيمان ، والتوحيد والمعرفة .

وثانيها : أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة ، والعبودية والخدمة .

وثالثها : أن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية .

ورابعها : أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت .

وخامسها : أن يحصل في القبر سهولة السؤال وسهولة ظلمة القبر .

وسادسها : أن يحصل في القيامة سهولة العقاب ، والخطاب وغفران السيئات

وترجيح الحسنات بقوله تعالى : " مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً " يتناول جميع هذه الأقسام

ولما ثبت بالبراهين الباهرة ، الكاهرة أنه لا رحيم إلا هو ولا كريم إلا هو لا جرم أكد

ذلك بقوله تعالى ، " مِنْ لَدُنْكَ " تنبيهها للعقل والقلب والروح على أن المقصود لا

يحصل الا منه سبحانه ، ولما كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنسبة إلى العبد لا

1- تفسير المراغى ج ١ ، ص ٢١٤ إلى ص ٢١٨ .

◆ لطائف الاشارات للتفسيرى ج ١ ، ص ١٩١ ، ص ١٩٢ .

◆ فى ظلال القرآن ج ١ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٨ .

◆ القرطبي ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

◆ مختصر ابن كثير ج ١ ، ص ٢٣٤ .

◆ تفسير القرطبي ج ٢ ، ص ١٠٥٥ إلى ص ١٠٥٨ .

جرم ذكرها على سبيل التنكير، كأنه يقول " أطلب رحمة وآية رحمة ، أطلب رحمة من لدنك ، وتليق بك وذلك يوجب غاية العظمة ، ثم يقول تعالى: "إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ" كأن العبد يقول : "إلهى هذا الذى طلبته منك فى هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك ، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الاشياء وأدواتها ، وماهياتها ، ووجودها ، فكل ما من سواك فمن جودك ، واحسانك وكرمك ، يا دائم المعرف ويا قديم الإحسان لا تخيب رجاء هذا المسكين ، ولا ترء دعاءه ، واجعله بفضلك أهلا لرحمتك يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين .